الفصل الأوَّل

اتجاه التدليل في التربيَّة

الاتجاهات الوالدية Parental Trends تُعبِّر عن مواقف الآباء إزاء الأبناء في مواقف حياتهم المهمة والمتنوعة ، وذلك باعتبارهم أطراف عملية تفاعُل اجتماعي دائم، وتعكس تلك المواقف اتجاهات الآباء نحو أبنائهم حيث تمثِّل مشاعرهم الخاصَّة نحوهم،سواء أكانت شعوريَّة أو لاشعوريَّة ، كما تعكس الاتجاهات الوالدية نوع وطبيعة خبرات الطفولة ، ونوع وطبيعة القيم الخاصَّة للآباء كما تمثلها أساليبهم التربويَّة في عملية التنشئة الاجتماعيَّة Socialization ومواقفها التي لا تحصي.

● ماهية اتجاه التدليل:

اتجاه التدليل Orientation direction يتمثَّل في تشجيع الطفل علي تحقيق معظم رغباته المُلِحَّة وغير المُلِحَّة في التوِّ واللَّحظة دون تأجيل أو إبطاء.

وقد يتضمَّن التدليل تشجيع الطفل علي القيام بألوانٍ من السلوك قد نعتبرها معيبة، أو خارجة عن المألوف، أو من الأساليب السلوكيَّة غير المرغوب فيها اجتماعيًّا، وقد يتضمَّن أيضاً دفاع الأب أو الأُمّ عن هذه الأنماط السلوكيَّة المعيبة ضد أي نقد يصدر إلي الطفل من الخارج.

والحقيقة فإنَّ التدليل هو خطأ جسيم يقع فيه كثيرٌ من الوالدين سواء عن إدراك أو عن عدم إدراك، فإذا بكي الطفل انزعجت الأسرة وراحت تهرول إليه لتسأل عمَّا ألَم به، وماذا يُريد ؟ وإذا أشار إلي شيءٍ ما أسرعت تحضره إليه في شوقٍ ولهفةٍ، وإذا امتنع عن تناول الطعام انزعج الوالدان لهذا الأمر..إلي غير ذلك من السلوكيات والتصرُّفات التي تجعل من الطفل يشعر بتدليل كبير.

وننوه بأنَّه إذا نشأ الطفل في هذا الجوّ الذي يُحيطه بكُلِّ حُبّ ورعاية وانتباه، والذي يقضي له جميع حاجاته، وكُلّ مطالبه سواء المشروعة أم غير المشروعة، وأيضاً يحل له كُلّ مشكلاته، فإنَّ الطفل سوف يعتاد علي ذلك ويتوقَّع أنَّ الجميع ــ في أي مكان وأي زمان ــ سوف يُعاملونه بنفس الطريقة.

● لماذا يلجأ الآباء والأمّهات إلي تدليل الأبناء ؟

إنَّ التدليل هو من أبرز العيوب التربويَّة التلقائيَّة التي ينزلق إليها الآباء والأُمّهات منذ أن يبدأ الطفل في بكائه الأوَّل عقب الولادة. والطفل الصَّغير لا يعرف وسيلة للتعامُّل مع مَنْ حوله إلاَّ البكاء، فهو ما يزال عاجزاً عن الكلام.ومن هنا صار الصَّغير يبكي في غضبه كما يبكي في حزنه، وفي ظروف أخري ـ غالباً ــ ما يُغلِّفها الغموض.

إنَّ انحباس رغبةٍ ما في داخل الصَّغير دون أن يُعبِّر عنها ولو بالبكاء أمر خطير، ولكن كيف يُفرِّق الأبوان أنَّ هذا البكاء الذي يُبديه الطفل لأسبابٍ سويَّة وليس بسببٍ من أسباب التدليل.

ولأنَّ هذه الفترة من حياة الصَّغير تكون ضبابية حيث يجهل الكثير من الآباء والأُمّهات أساليب التعامُّل معه في تلك السِن فإنَّ معاملتهما إيّاه تكون بإحدى طريقين : إمَّا بالعقاب البدني كالضَّرب، أو تحقيق رغباته ليكف ويهدأ. وقد تبقي هذه المشكلة حتي حينما يصبح الطفل قادراً علي الكلام، فهل من وسائل لصرفه عن البكاء من جهةٍ، وعدم تحقيق رغبته والتي قد تكون غير ضرورية أو ربما كانت ضارة به أحياناً من جهةٍ أخري ؟

لقد أجاب علي هذا التساؤل المفكّر التربوي الفرنسي"جان جاك روسو"–Jean Jacques Rousseau (1712-1778) بقوله:« تعلَّموا كيف تعرفون أبناءكم ». والمعرفة هنا لا تنصب ــ فقط ــ علي المظاهر الخارجيَّة التي تصدر من الأبناء، لكن أيضاً معرفة حقائق التكوين النفسي والتطوُّر الاجتماعي المُلازم للنموِّ البيولوجي.

إنَّ الطفل في مرحلة الطفولة المبكرة (٣،٤،٥ سنوات) يُدرك المحسوسات، فمن الطبيعي ألاَّ يُهديه تفكيره إلاَّ إلي الأشياء التي تقع عيناه عليها، وهو يُجرِّب كُلّ ما تدفعه إليه نزعات نفسه للحصول عليها،سواء بالبكاء أو بالصراخ أو بالعناد، غير أنَّه لا يلبث أن يكتشف أنَّ البكاء هو أفضل الوسائل لتحقيق رغباته المُلِحَّة وغير المُلِحَّة، وخاصَّة حين يلمس أثره السريع علي مَنْ حوله من حيث مسارعتهم لتلبية رغباته حتي يكف عن البكاء.

ولأنَّ رغبات الطفل لا تكاد تنتهي ولا تخضع لأي معيار ضابط لأنَّه لم يتشبَّع بعد بقيم المجتمع، ولم يتطبَّع بعد بقواعد التحكُّم في جموح الذَّات، كان من الضروري أن يعي ويعرف الآباء والأُمّهات الفرق بين رغباته اللاَّمحدودة هذه وحاجاته الضرورية اللاَّزمة.وهنا نذكر مثال تطبيقي، حيث نعرض لنموذج الطفل الذي يطلب لُعبة شاهدها في متجرٍ لبيع اللُّعب، وعندما حاولت أُمّه بأن تُذكِّره بأنَّ لديه مثلها في البيت، أخذ في البكاء (من قبيل المبرِّرات الطفولية)، مُعلناً أنَّه يُريدها لأنَّ لونها مُغاير للَّون لُعبته التي يمتلكها،ثُمَّ تمادي في الصراخ والبكاء.

إنّ توفر لهذه الأُمّ فهم سيكولوجيَّة طفلها هذا، وخصوصّاً في هذه المرحلة العُمَرية، وعلمت أنَّ ما يُحرِّكه إنَّما هو مُجرَّد رغبة طارئة، وليس لحاجةٍ ضرورية، لردت عليه بكلمة « لا » قاطعة حازمة، غير أنَّها متبوعة بعبارةٍ موجزةٍ مُفيدة ،مثل :« إنَّك تمتلك مثلها ولا أهمية للون »، ومشفوعة أيضاً بإرشاداتٍ توضيحية، فإنَّ الطفل سيرتدع. وهنا سيكتشف أنَّ البكاء لا يُفيد في فرض مطالبه علي الأبوين، وبالتالي ينشأ متقبِّلاً للتوجيه في المستقبل.

- **مظاهر التدليل:**

تظهر ألوان التدليل في صورٍ مُتعدِّدةٍ،فعندما يبدأ الطفل في تعلُّم اللُّغة والكلام، ونراه يسب أباه أو أُمّه فغالباً ما نجدهما يضحكان بسرورٍ، وعندما ينموّ ويشتد عوده ويذهب إلي المدرسة يمنحانه مصروفاً مُبالغاً فيه ينفقه كما يحلو له دون توجيه يجعله يُميِّز بين جهات الإنفاق الصحيحة وجهات الإنفاق الخاطئة.

وفي المدرسة قد يضرب ويعتدي علي زملائه، ويُعلِّق الوالدان علي ذلك: «بأنَّه ما زال طفلاً صغيراً لا يعي ما يقوم به»..متناسين أنَّ فترة الطفولة هي فترة تكوين وتعميق الاتجاهات الإيجابيَّة المرغوب فيها،أو الاتجاهات السَّلبيَّة غير المرغوب فيها.

وفي البيت قد يلهو بجهاز التلفزيون أو بجهاز الكمبيوتر ويبدأ اللَّعب في الأزرار أو المفاتيح دون اكتراث أو اهتمام، والأُمّ تضحك في استهتارٍ !! دون أن تُشعر طفلها بأنَّ ما يقوم به من سلوكٍ إنَّما هو سلوك خاطئ وغير مقبول، ودون أن تهم بتعديل سلوكه.

وربما يقذف الماء أو الأوراق من النافذة أو الشرفة علي المارة في الطريق، والأُمّ نراها لا تهتم ولا تعبأ بالأمر.

وإذا أخذته الأُمّ في زيارةٍ لإحدى صديقاتها أو زميلاتها أو أقربائها فقد يجذب الطفل المنضدة فتسقط أشياء ثمينة القيمة وتتحطم، عندها تكتفي الأُمّ بالاعتذار والرَّغبة في شراء هذه الأشياء من قبيل التعويض، دون إعادة تقييم أسلوبها السَّلبي في التعامُّل مع طفلها، ودون إشعاره بالخطأ الجسيم، بل قد نراها تحتضنه وهي تقول:« حدث خير.. المهم أنَّك لم تصب بأي أذي..فداك ».

وقد تصطحبه معها إلي العمل، فتتركه يلعب بأدوات أو أجهزة العمل المهمة دون أن تُرشده، بل قد تتمادي الأُمّ فتقول لإحدى زميلاتها في العمل: « اتركيه يلعب قليلاً لأنَّه يلعب بعهدتي الخاصَّة».

وإذا خرج الطفل المُدلَّل مع والداه وغالباً ما يطلب شراء أي شيء يراه حتي يشترياه له دون تمييز لما يُفيده أو يضره..والأمثلة بالقطع كثيرة ولا تنتهي ، وهي غير قاصرة علي الأُمِّ وحدها بالقطع.

● الآثار السَّلبيَّة للتدليل:

الإسراف في التدليل له عواقب مُتعدِّدة، منها: الشعور بالنقص، وفقدان الثقة بالنفس، وقتل روح الاستقلال وتحمُّل المسؤولية. كما يترتب علي تدليل الأبناء ظهور شخصيات قلِقة متردِّدة تتخبط في سلوكها بلا قواعد أو معايير أو حدود، وربما تكون شخصيات متسيبة تفتقر إلي ضوابط السلوك المتعارف عليه.

وعندما يكبر الطفل المُدلَّل نجده لا يُحافظ علي عهوده والتزاماته ومواعيده، ولا يستطيع تحمُّل أي مسؤولية يوكل بها إليه، وغالباً ما يكون غير منضبط في سلوكه أو عمله، بل يعتمد دائماً علي الآخرين من ذوي المراكز من الأقارب أو المعارف للوصول إلي هدفٍ ما أو مركزٍ ما يُريده، إنَّها « المحسوبية » اللَّعينة.وعندما يتزوَّج هذا الشخص ـ غالباً ـ ما يترك لزوجته المسؤولية كاملة دون أي مشاركة منه.

وفي المدرسة نجد الطفل المُدلَّل يتوقَّع أن يُعامله المُعلِّم وزملاؤه بنفس الأسلوب من المعاملة التي يُعامله به والده ووالدته وإخوته، بل وحتى أقاربه. وعندما لا يحصل منهم على التدليل قد ينزعج ويتذمر ويبدأ في الشعور بعدم الثقة في النفس وبأنَّ مركزه في المدرسة قد بدأ في الاهتزاز، وأنَّه الآن في أو مجتمع مختلف عن عالم أو مجتمع الأسرة. حيث لا يجد الطفل التدليل والاهتمام والرعاية الكافية التي كان يتلقاها في أسرته. فيبدأ الخوف وعدم الثقة يسيطران عليه، وقد يستجيب الطفل لهذا الموقف المؤلم استجابات مختلفة،منها: الشعور بالغضب، والخوف، والقلق النفسي، وكذلك حالات الشرود الذهني، والإغراق في أحلام اليقظة.

وقد تشتد استجاباته حتي تصل إلي حالة من التلعثم، أو اضطرابات الكلام، أو التبوُّل اللاَّإرادي في الفراش، ثُمَّ ينتهي الأمر بالسَّرقة، سواء سرقة زملائه في المدرسة أو إخوته في الأسرة.

إنَّ الإغراق في حُبٍّ طفل بعينه يحوِّل الحُبّ إلي نوعٍ من التدليل، بحيث يستجيب الكبار لرغبات الطفل دون تمييز، وفي هذا إفساد للطفل. فالحياة لها ظروفها ووقائعها، فهي تمنح أحياناً وتضن أحياناً أخري.وكثيرٌ من الأمور لا يتحقَّق إلاَّ إذا بذل الشخص فيها جهوداً وعناءً ومثابرةً، ولذلك فإنَّ الحياة ليست طيعة أو وفق هوانا، فالتدليل الذي يحدث باسم الحُبّ والحنان، يخلق صورة كاذبة ومضللة عن حقيقة الحياة، ولذلك بقدر ما يستجيب الأبوان بكلمة « نعم »،فهناك مواقف تقتضي قول« لا »حتي يشب الطفل موضوعياً وواقعياً.

كما أنَّ التدليل يدعم ظهور نوبات الغضب والعناد، وكما قلنا فالتدليل ينطوي علي إجابة كُلّ مطالب الطفل ورغباته الممكن منها وغير الممكن، المهم وغير المهم، وعلي ذلك فالطفل لا يتعوَّد تأجيل هذه المطالب والرغبات.

وفي تطوُّر آخر،يتوقع الطفل أنَّ البيئة سوف تجيبه أيضاً إلي ما يصبو وما يُريد، ولكن حينما تُقابل رغباته بنوعٍ من المنع أو الإعاقة تكون الصَّدمة شديدة وقاسية،

ولها مضارها النفسيَّة العميقة، فيلجأ الطفل بطبيعة الحال إلي أساليب الغضب والعناد والتوتُّر.

وتدليل الأطفال وإيثارهم علي نحوٍ مبالغ فيه يعني أنَّنا لا نؤهلهم التأهيل الصحيح لمجابهة الحياة بكُلِّ مصاعبها. والطفل المُدلَّل يشب فرداً أنانياً يري نفسه فقط، ولا يستطيع أن يُدخل الآخرين في حيز حياته أو اعتباره، يثور ويغضب كُلَّما عجز عن تحقيق رغباته وأهوائه، يتمركز حول ذاته، مقتنعاً أنَّ الكُلّ سيلبي ما يُريده، ولن يجرؤ كائن مَنْ كان في أن يقول له « لا »،فيشب شخصاً هش التكوين، لا يستطيع أن يواجه صعوبات الحياة التي تحتاج إلي أشخاصٍ يواجهون المشكلات الحياتية بشجاعةٍ وإصرارٍ، يحاولون مراراً وتكراراً،يفشلون مرَّات ومرَّات، دون أن تثبط لهم عزيمة، يرون مغريات الحياة فيغضون الطرف عنها، مُفضلين دائماً إيثار القيم والمبادئ التي تعلَّموها، ونشئوا في كنفها بمثابة ضوابط داخلية وخارجية للسلوك.

ويمكننا أن نُفرِّق بين التدليل والعطف، ففي العطف أخذ وعطاء، أمَّا في التدليل فالطفل يأخذ دون أن يُعطي، والعطف ألزم ما يجب أن يُحاط به الطفل، فهو الموازن الطبيعي الذي يشعر به الصَّغير حيال الكبير، ويبعث في نفسه الشعور بالأمن والطمأنينة الذين يحتاج إليهما.

ولكي نعطف علي الطفل ونُحبّه بالرغم ممَّا نراه فيه من عيوب يتعيَّن علينا أن نفهمه، فمعرفة الطفل شرط ضروري لتربيته.غير أنَّنا كثيراً ما ننظر إليه بأعيننا لا بمنظاره هو فنحاسبه كما لو كان كبيراً، ونفرض عليه أوامر لا يفهمها ويري فيها نوعاً من التعنت.

فالواجب أن يحل التفاهُم والفهم والإقناع محل الأمر والنهي، وأن نفرض عليه الحرمان إذا اضطررنا لذلك علي درجاتٍ وفي رفقٍ حتي لا يلجأ الطفل الضعيف إلي الكبت أو الجنوح باعتباره الوسيلة لحلِّ الصِّراع الذي يخلفه الحرمان.

- **الحلول المطروحة للقضاء علي أسلوب التدليل:**

قد يقسو بعض الآباء أو الأُمّهات علي أطفالهم اعتقاداً منهم أنَّ في هذا التصرُّف وقاية لهم من أن يقعوا فريسة التدليل، لذلك نجد هؤلاء الآباء أو الأُمّهات قد يمنعون عن أطفالهم بعض الهدايا أو المال أو الاهتمام !

بالطبع هذا خطأ جسيم إذ أنَّ التدليل لا علاقة له بما يملكه الطفل، أو بمدي الاهتمام الذي يحظي به من والديه، والمهم في الموضوع هو: كيف، ولماذا، يحظي الطفل بكُلِّ هذه الأشياء ؟

إنَّ التدليل مرجعه يعود إلي ميزان القوي في الأسرة، فطفل ما قبل المدرسة يري نفسه فرداً ضمن مجموعة من الأفراد، وهو في هذه السن يكون شديد الاهتمام بمعرفة مدي تأثيرهم عليه، ومن هنا يبدأ الطفل في اختبار حدود هذا التأثير، وكُلّ طفل بل وكُلّ إنسان لابدّ أن يكون لديه شعور بأنَّه مؤثِّر فيمَنْ حوله بدرجةٍ ما، ولن يكون نموّ الطفل سليماً إذا كان واقعاً تحت تأثير الأسرة تماماً. ولكن في نفس الوقت من الخطأ أن نُعطي الطفل الفرصة ليتغلَّب علي قوة الأسرة بالعناد أو البكاء ويصبح له هو كُلّ التأثير.إنَّ حلّ القضية كُلّها يكمن في قرَّار الآباء والأُمّهات عمَّا يعتبرونه معقولاً بالنسبة لما يمكن لطفلهم أن يقوم به أو يحصل عليه، وعن مدي صراحتهم معه في هذا الشأن.

وهناك بعض الحلول المقترحة التي قد تُساعد في تلافي أسلوب التدليل في معاملة الأطفال، نذكر منها:

- إذا استطاع الطفل أن يقنعنا بتغيير رأينا عن طريق مناقشة معقولة، أو عن طريق إقناع لطيف فلا بأس في هذا، ذلك أنَّه هنا يستخدم تأثيره من أجل الوصول إلي نتيجة طيبة، ولكن إذا استخدم البكاء ونوبات الغضب واستجبنا له فهذا هو التدليل بعينه.

- لنُفكِّر قليلاً قبل أن نرد علي طفلنا بالرفض إزاء طلب مُعيَّن، فإذا طلب من أن نلعب معه ونحن منهمكين في العمل، فربما يكون ذلك لشعوره بالملل، عندئذ يمكننا أن نرد عليه كالتالي:« نحن لا نستطيع أن نلعب معك الآن لأنَّ لدينا بعض الأعمال التي نقوم بها، ولكن إذا كنت تشعر بالوحدة فلماذا لا تأتي وتساعدنا في بعض هذه الأعمال».

- لنحاول أن نوازن بين حقوق الطفل وحقوقنا كآباء وأُمّهات بنفس الطريقة التي نوازن بها بين حقوق طفلين، فإذا كانت الأُمّ مثلاً تُريد أن تمضي فترة الظهيرة في العناية بالمنزل بينما يُريد طفلها أن يخرج للنزهة، هنا تنشأ المشكلة، لكن لتناقش الأُمّ المشكلة مع طفلها، فإذا كانت لا تستطيع الخروج للنزهة فلتقل له ذلك بصراحةٍ وحزمٍ، بحيث لا تجعله يشعر بأنَّها مُتردِّدة فإنَّ ذلك سوف يُشجعه علي الاعتقاد بأنَّ قليلاً من الضغط عليه سوف يجعلها تلبي رغبته.

وإذا شعرت الأُمّ أنّ طلب طفلها معقول فلتحاول أن تجد حلاً وسطاً بحيث تلبي رغبتها ورغبة الطفل أيضاً، فيمكنها مثلاً أن تقترح أن تخرج معه لنزهةٍ قصيرةٍ نصف ساعة مثلاً، ثُمَّ تعود بعد ذلك للقيام بأعمال المنزل. وإذا وضعت خطة كهذه عليها أن تُراعي أن تتناسب معها، فمثلاً لا تُشعر طفلها بأن كُلّ خطوة تخطوها في النزهة تُشكِّل ضغطاً عليه فإنَّ ذلك سوف يُشعره بأنَّه أجبرها علي الخروج معها، وسوف يفقد هو الشعور بالمتعة من النزهة.

- لنُساعد الطفل علي فهم مشاعر الآخرين، فإنَّ فهم مشاعر الآخرين هو أساس العطاء والبُعد عن الأنانية والتدليل.لننتهز إذاً جميع الفرص لنؤكِّد لدي طفلنا هذه المشاعر. يمكن للأُمِّ مثلاً أن تقصّ عليه كيف سرقت دراجة الطفلة الصَّغيرة ابنة الجيران، وكيف شعرت بالحزن، وإذا ما عقَّب الطفل علي ذلك بأنَّ الطفلة يمكنها شراء دراجة أخري،لتشرح له أنَّ الآباء والأُمّهات غالباً ما يريدون شراء أشياء كثيرة لأطفالهم، ولكن ليس بإمكانهم دائماً أن يشتروا كُلّ ما يطلبونه.

- لنُشرك أطفالنا معنا عندما نضع أي خطة خاصَّة بالأسرة، رحلة أو حفلة أو ما إلي ذلك، ولندع الطفل يتعرَّف علي المشكلات التي قد تنشأ عن ذلك،وكيف يمكن التغلُّب عليها بحيث يكون جميع الأفراد المشتركين في هذه المناسبات مسرورين ومستمتعين.